٢ أيها المصرى من أنت؟

أنا الذى إذا أعطيتنى قلبك وثقتك وأحترامك رأيت منى عجبًا..

د. حسين مؤنس

٦ أكتوبر ١٩٧٣

كل شىء هادىء على جبهة قناة السويس.

المصريون فى أماكن حراستهم على الضفة الغربية للقناة، الدوريات تروح وتجىء فى صمت وسكون. بعض الضباط يمسكون بمناظيرهم المكبرة ويجولون بأبصارهم خلالها، كلّ فى المنطقة المقررة له، فلا يرون شيئا غير الذى اعتادوه منذ وقوف حرب الاستنزاف، الإسرائيليون هناك على الضفة الشرقية يقومون بأعمال الحراسة والدوريات فى تكاسل ظاهر.

إنهم واثقون من قوتهم وسلاحهم، مدافعهم مصوبة إلى أهدافها على الضفة المصرية، إلى جانب كل مدفع رجال نوبته يتأكدون من أن ماسورتها على الأهبة لتقتل أى حركة يشكون فيها على الجانب المصرى، وراءهم يرتفع ساتر ترابى كأنه جبل، ومن خلفه موانع خط بارليف وأنفاقه وغرف عملياته، الجنود والضباط يخرجون ويدخلون، عربات الجيب تروح وتجىء، بعض الجنود الإسرائيليين من غير رجال النوبة يستحمون فى مياه القناة، بعضهم يقرأ كتبا وأقدامهم مدلاة فى الماء.

آخر ما كان يخطر ببالهم أن يقوم المصريون بأى شىء. من هذه الناحية كان الإسرائيليون واثقين الثقة كلها، فقد قصموا فيما ظنوا ظهر القوة العسكرية المصرية فى حرب الستة الأيام فى شهر يونيو ١٩٦٧ وقال لهم موشى ديان إن مصر لن تنهض عسكريا قبل عشرين سنة.

فى الساعة الثانية عشرة بعد الظهر تراخت دورياتهم فإنه – حتى فى حالة ما إذا كان المصريون يضمرون شيئاً – فإن كل قواعد العسكرية تقول إن أى هجوم ينتظر له نجاح لا يمكن أن يبدأ بعد الظهر، إنهم الآن يستعدون للغداء فهذا يوم الكيور، اليوم الكبير، يوم التكفير، وفى يوم التكفير لا تقوم حروب.

ولكن الساعة الواحدة بعد الظهر أتتهم بمفاجأة العمر.

فى وقت واحد، وبتوقيت محكم بدأت مدافع المصريين ترسل وابلا من القذائف بطول القناة من السويس إلى سهل الطينة بدقة لم يصدقها الإسرائيليون، كل قنبلة تقضى على بطارية مدافع عندهم أو تمزق إربا قاعدة تجمع سيارات أو مركز تموين، فى دقائق وجد من كان «إيريك رولو» مراسل الموند يقول إنهم أعظم جنود الدنيا، وجدوا أنهم تحت رحمة عسكريين يفوقونهم تراحل، من هول المفاجأة وجد الكثيرون منهم أن أحسن ما يفعلونه هو أن يهربوا.

واستمر القصف الرهيب فى لهوات الساتر الترابى، وقف الإسرائيليون مذهولين، للمرة الأولى فى صراعهم مع العرب عرفت قلوبهم الخوف، أمر لا يصدق: المصريون ينصبون جسورا على القناة، طائراتهم تمثل الواقع الإسرائيلية ذكًا، لقد قامت القيامة، والمصريون عادوا فراعنة كما كانوا قبل أربعين قرنا، وأمام الفراعنة، ليس أمام اليهود إلا الهرب، لقد هربوا أمام المصريين أيام الفرعون منفتاح وكان معهم نبى الله موسى بن عمران عليه السلام، وها هم أولاء اليوم يهربون أمام نفس المصريين ومعهم موسى بن ديان.

كيف قام المصرى بهذا العمل، فغير الأوضاع فى الشرق الأوسط فى أيام قليلة، وضرب الجبار بين عينيه بالسيف، وقلب ميزان فنون الحرب – استراتيجيا وتكتيكيا – فى العالم كله..؟

الجواب: لأنه فى هذه الجولة من الحرب مع إسرائيل وجد المصريون قائدا والدا هو الرئيس السادات..

وبكفاية القائد العسكرى الموهوب، وبذكاء السياسى الدارس المتن الواسع الذهن، المدرك بالفطنة والعلم وبعد النظر لحقائق المعركة الطويلة الدائرة على أرض العرب التى نسميها – لا أدرى لماذا – الشرق الأوسط وما هو بأوسط بحال، إنما هو مصطلح ابتكره الإسرائيليون وأحلافهم ليزيلوا اسم عالم العرب أو الشرق العربى ويضعوا مكانه اسما يتسع لإسرائيل، بهذه الصفات كلها وغيرها كثير، أعدّ هذا القائد للمعركة ورسم حدودها وقرر موعدها.

وبقلب الوالد الرقيق بعث القائد الثقة فى نفوس العاملين معه جميعا من القادة الكبار إلى المقاتلين فى الصفوف، وعندما استقرت الثقة فى النفوس وانتقلت مشاعر المحبة من قلب القائد إلى نفس المحارب تفجرت فى نفوس المصريين المواهب الكبرى الكامنة فى النفوس، واستيقظت فى قلوب المصريين نفس العبقرية التى بنت الأهرام والمعابد والمسلات والقصور وكل ما يبهر الناس من آلاف السنين، نفس العبقرية التى قادتهم إلى نصر حطّم، والتى صنعت تلك الجوهرة البديعة التى هى حضارة مصر الإسلامية.

لأن المصرى إذا وجد القائد الوالد الموهوب العطوف وجد فى نفس الوقت نفسه، وهنا لا حدود لما يستطيع عمله هذا الشعب المجيد.

وإذا لم يجد القائد الوالد، ووجد نفسه مقودا بناس لا يحبهم ولا يحبونه، لا يحترمهم ولا يحترمونه، انطوى على نفسه ونامت ملكاته معه، ودخل فى نوم الشتاء الطويل.

طبع فطره الله عليه، وقالب صبه الله عليه، صبغة الله فى شأنه «ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون».

إنه قبس من روح الأسرة الذى تحدثنا عنه المرة الماضية، والأمر يحتاج إلى مصاديق أخرى من التاريخ.

• • •

فى أوائل يوليو ١٩٥٢ كانت آمالنا نحن فى مصر قد هبطت إلى القاع، كانت أواخر أيام بيت محمد على الذى صنع لنا وبنا الكثير، ولكنه ضيّع ما صنع عندما رفض أن يكون والدا وربّا لأسرة هذا الشعب، لقد أبدناه ورفعناه من مرتزق ألبانى إلى قائد شعب جليل، ولكنه لم يكن على مستوى الأبوة وإن كان على مستوى القيادة فقرر بهذا مصير بيته.

وفى أواخر يوليو ١٩٥٢ كان آخر الملوك من ولده أبعد ما يكون عن روح القيادة وخلال الأبوة.

وكان حزب الوفد الذى قام بدور القائد الوالد منذ أعطاه هذا الشعب توكيلا للدفاع عن حقوقه والحصول على الاستقلال، قد تخلى عن دور القائد الوالد عندما وقع معاهدة ١٩٣٦، وقال لنا: لقد أتيتكم بالاستقلال الذى وعدتكم به، وكان يخدع نفسه، فإن الذى أتى به فى معاهدة ١٩٣٦ كان قليلا جدا بالنسبة لما كنا نرجوه.

وما دام المحامى قد كسب القضية – فى زعمه – فقد انتهت وكالته وخلا الميدان من قائد ووالد، فحدث ذلك التدهور الذريع

فى شئون مصر من ١٩٣٦ إلى ١٩٥٢ .

وفى الساعة السابعة من صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ صحت مصر على رنين صوت يقول إن جيش مصر قد نهض لقيادة شعب مصر فى طريق الاستقلال الصحيح والنهوض المأمول .

وأحس أهل مصر جميعا بحرارة الأبوة فى صوت ذلك الشاب المصرى الأصيل الذى أعلن نهاية عصر التدهور ، ودعا الشعب إلى النهوض معه لمواصلة الكفاح .

وكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فى ثلاثة أيام كان آخر البطالمة الجدد أبناء محمد على قد غادر مصر متنازلا عن حقه فى شرف لم يستحقه قط ، ومبارحا أرضا شرّفه وجللته وما كان بأهل لهذا الشرف أو الجلال .

واستيقظ الشعب كله وأسرع يمد يده إلى القائد الأب الجديد . ولم يكن أبا واحدا إنما كانوا فئة من شباب مصر الذين عرفوا كيف يقومون بدور القائد الأب الأمين .

وبخطوات سريعة كانت كلها تحقيقا لآمال فى صدر هذا الشعب ، امتد الخط الساخن من قلب القيادة إلى قلوب الشعب .

وكانت النهضة الكبرى التى أصبحت بعد أربع سنوات فحسب – ١٩٥٦ – نهضة وثورة عالمية ، فإن قائد مصر الشاب جمال عبد الناصر والذين معه كانوا بالعمل (أشداء على الكفار رحماء بينهم) دخلوا بنصف الإنسانية عصرا جديدا يوم أنهوا قناة السويس وأسقطوا الستار عن المستعمر العرق الذى كان يستغل أفريقية وآسيا وأمريكا الوسطى والجنوبية جميعا .

والبيد الباسلة التى وقعت أمر تأميم القناة وقعت فى نفس الوقت قرار نهاية الاستعمار . ففى سنة ١٩٥٢ لم يكن فى أفريقية كلها إلا بلدان مستقلان : مصر والحبشة وبلد نصف مستقل هو ليبريا .

وبعد سنة ١٩٥٦ بدأت شعوب أفريقية وآسيا كلها تستقل ، لقد سقط الستار على الغرب .. ولجأ كل المظلومين على البصق بين عينيه .

وفى مؤتمر باندونج رأت الدنيا شابا طويلا أسمر نهض من تراب قرية بنى مرّ مركز أسيوط فى صعيد مصر ، كأنه فرعون شاب عبر عشرات القرون فى طرفة عين وأتى ليفتح فى تاريخ الدنيا عصرا جديدا .

كيف تم ذلك كله ؟

لأن الذين قاموا بالثورة الكبرى كانوا قادة شبابا عرفوا كيف يقومون بدور القائد الوالد ، أصبح رئيس مصر رئيس العرب أجمعين .

مرة أخرى ، هذه روح الأسرة التى هى عصب الحياة والقوة فى فطرة مصر ، وقدرتها على الإبان بكل عجيب إذا وجدت القائد الوالد .

طبع فطره الله عليه ، وقالب صبه الله عليه ، صبغة الله فى شأنه (ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) .

وخطوة أخرى إلى الوراء .

فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ انتهت الحرب العالمية الأولى ، سلّمت ألمانيا أمام الحلفاء وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة . وعقدت الهدنة وبدأت التمهيدات لعقد مؤتمرات الصلح أو مؤتمر إملاء المنتصر شروطه على المنهزم كما قال أدولف هتلر .

وانتصب لرسم خريطة الذل والعبودية لثلاثة أرباع الدنيا اثنان من شياطين السياسة العالمية : جورج كليانصو وجورج لويد . وواحد كان دوره هو دور السيد فى فرقة الغناء هو فرانسيسكو ساحير يونيى رئيس وزراء ايطاليا ، وواحد بدأت مفاوضات الصلح وهو دكتور ومدرس وواعظ هو وودرو ويلسون رئيس الولايات المتحدة ، وانتهت وهو تلميذ بليد .

وأخذ سادة الدنيا وأصحاب القول الفصل فى مصير البشر يتجادلون والدنيا كلها تنتظر .

ولكن شعبا واحدا من شعوب الدنيا المغلوبة إذ ذاك لم ينتظر .

هو شعب مصر ! انتهت الحرب يوم ١١ نوفمبر وفى صباح ١٣ نوفمبر كان رجال مصر مع السير ريجنالد وينجيت يطالبون باستقلال بلادهم .

وكان وينجيت يحسب أنه يستطيع بكلمتين صرف أولئك الرجال .. ولكنه وجدهم يطالبون بالاستقلال .

وكان من طرائف ما قال وهو غير مصدق نفسه : إذن فأنتم تطلبون الاستقلال ؟ ! وكان المصريون فى ذلك الحين فى قلق على المصير ، ولكن القلق على المصير كان الحالة النفسية التى تعوّد عليها المصريون ربما منذ غزت قطعان الهيز الغربة بلاد مصر سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، وحربت بلاد مصر تحريبا أوقف استمرار الأسرات المصرية .

وحالة القلق على المصير هذه كانت فى تاريخنا دائما المرحلة السابقة على مرحلة الانطواء والتحجر ونوم الشتاء .

وفجأة سمع المصريون أن ثلاثة من كبار أمرتهم وهم سعد وعلوى وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى أعضاء الجمعية التشريعية قد

أيها المصرى من أنت أنا الذى إذا أعطيتنى قلبك وثقتك وأحترامك رأيت منى عجبًا..

طلبوا من المندوب السامى وممثل بريطانيا أن يرحل عن مصر ويدعها لأهلها.

وتوقفت عملية نوم الشتاء ، فإن الأسرة المصرية شعرت أن لها آباء يهمهم يتكلمون باسمها.

وعندما سأل السير وينجيت عن الصفة الشرعية التى تخوّل لكبار الأسرة الثلاثة التحدث باسمها .. بدأت حركة إعطاء التوكيلات ، وهى من أجمل مبتكرات الذهن السياسى المصرى...

وتكوّن الوفد المصرى..

ويستيقظ شعب مصر كله ، وتعود الروح كما قال توفيق الحكيم . وفى ٧ فبراير ١٩١٩ وجدت الأسرة المصرية أباها.

لأن مصر كما قلت تحتاج دائما إلى القائد الوالد ، والحب ودفء العاطفة هو الجو الذى لابد منه لنهوض المصرى.

كان ذلك اليوم موعد محاضرة ثانية يلقيها المستر أرشيبالد برسيفال المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية عن مشروع قانون العقوبات الجديد الذى أعدته لجنة الامتيازات ورئيسها المستر وليام بروفيات كبير مستشارى دار الحماية لتقرير نظام الحكم فى مصر بعد الحرب. وأهم ما فيه أن تتولى حكومة مصر وزارة مشتركة من المصريين والأجانب لأن مصر فى تصور الإنجليز ضيعة أوروبية يقوم فيها السلطان أو الملك بدور صاحب الأرض المحجور عليه (لأنه سفيه) ويتولى الأمر من دونه المندوب السامى البريطانى ، ويقوم بدور الخوف وناظر الزراعة وباشكاتب الضيعة ، وتحت إشرافه تتولى السلطة الوزارة المصرية الأجنبية وتقوم بمهمة موظفى الدائرة.

وتكلم القاضى برسيفال عن قانون العقوبات الذى يضعه مع لجنته ، وختم خطابه قائلا إن مصر ستحكم بهذه الطريقة بشريعة معقولة.

وينهض سعد زغلول ليعقّب على المحاضرة فسخر من قانون بروفيات وكلام برسيفال ، وقال : ولكنى أقول لحضرته إن هذا الشرع موجود فعلا منذ أمد بعيد.

إن أمتنا المصرية ليست من قبيل الأقوام الهمج الذين ليست لهم شرائع مقررة ، إنما بلد كبير كبلدنا تكون له حياة عريقة فى القوانين والشرائع ، فمن الخطر أن يعمد إلى تغيير كلّى فى شرعه بدون أن تدعو الضرورة لذلك ، أو تهدى إليه التجربة والاختبار..

ويستطرد سعد فى كلامه بمنطق سليم ناقدا ومناقضا لمشروع السير وليام بروفيات من أساسه ، ثم أنكر الحماية على مصر ، وختم كلامه بتلك العبارة التى خلدت من تاريخ مصر عصرا وبدأت عصرا : فى سنة ١٩١٤ أعلنت انجلترا حمايتها على مصر من تلقاء نفسها ، بدون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية ، فهى حماية باطلة لا وجود لها قانونا ، بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها ، ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة.

وطارت العبارة التاريخية من أقصى الوادى إلى إقصاه ، والفلاحون الذين لا يفكرون أخط فهموها بقلوبهم فى عمق ، وفهمها الميجر جنرال تشارلس واطسون الذى خلف السير ريجنالد وينجيت فى غضب ، وفهمها صاحب العظمة السلطان أحمد فؤاد فى رعب.

لقد وجدت مصر قائدها وأباها ، وما دامت مصر قد وجدت القائد الوالد فلا حد لما تستطيعه..

وقامت ثورة ١٩١٩ ، والتف شعب مصر كله بذلك الوالد الوقور والقائد الباسل ذى الوجه الوسيم والشعر الأبيض والهيئة الجليلة . إنه فلاح من طينة مصر فهو ابن الشيخ ابراهيم زغلول ، وهو أزهرى . والأزهريون كانوا حتى ذلك الحين آباء الأسرة المصرية ، وهو عصامى بدأ من أول السلم ، وانتهى إلى الوزارة ، والمصرى يحب الرجل ذا المركز الكبير ، وهو خطيب بليغ ، والبلاغة عند العرب جميعا شارة مجد وسؤدد . أى أن سعدا التقى مع كل طبقات أهل مصر فى ذلك اليوم ، والكلمة التى يلفوظها سعد تصل إلى قلب كل مصرى عن الطريق الذى يفهمه . الشاب المتعلم فهمها بعقل الشاب المتعلم ، والفلاح الأمى فهمها بقلبه المرهف . والمصرى المتعلم العادى فى ذلك الحين وهو الأزهرى فهمها وحفظها كما يحفظ المتون.

من هنا كانت ثورة سنة ١٩١٩ ثورة شاملة وصلت إلى قلب كل مصرى وخاطبته بلغته ، مثلها فى ذلك مثل ثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧٠ التى قدمت لكل مصرى ما كان يتمنى الحرية لمن ضيقوا عليه وحرموه الحرية . والحق لمن غصبوه حقه وحرموه ماله . والكرامة لمن أذلوه وأهانوه ، والعمل الحر لمن حرموا عليه العمل الحر ، والغذاء لمن فى حاجة إلى الرغيف ، وفوق ذلك كله الأمان ، وكنا جميعا قد افتقدناه.

كانت ثورة سنة ١٩١٩ شاملة لأن القائد الوالد كان كل شىء بالنسبة لكل مصرى.

هنا أيضا تجد السر فى نهوض المصرى وشجر نواحى الإبداع فيه يرجع إلى أنه وجد القائد الوالد الذى بادله الحب والثقة والاحترام.

وعندما تجد الأسرة المصرية الأب القائد أو القائد الأب ترى منها العجب..

وأعود بك إلى الوراء مرحلة أخرى لأريك قائدا قديرا تولى أمر هذا الشعب ، ولكنه عجز أو رفض أن يكون أبا ، فأنكرته الأسرة المصرية وانفصلت عنه.

هذا الرجل هو محمد على.

لاشك أن هذا الرجل موهوب . من تاجر دخان وصل إلى أن يكون من كبريات شخصيات القرن التاسع عشر.

هذا الرجل أتانا قائد فرقة صغيرة من الألبانيين فى فترة يأس وفوضى ، فإن مصر بعد معاهدة إميان سنة ١٨٠٣ كانت مهددة بالعودة إلى حكم الأتراك.

والأتراك العثمانيون الذين جيوا الدنيا عندما ظهروا على مسرح التاريخ فى القرن الرابع عشر الميلادى . وأنقذوا عالم الإسلام من أخطار محيقة فى القرن السادس عشر الميلادى . هؤلاء الأتراك هبطت عليهم بعد سليمان القانونى هبة شاملة أنعستهم وأنعستنا معهم وأصبحوا فى القرن التاسع عشر نكبة على أنفسهم أولا وعلينا ثانيا.

وكنا بعد ثلاثة قرون من الحكم قد دخلنا – والأتراك معنا – فى نوم الشتاء ، ولكننا صحونا على الفرقعة الهائلة التى أحدثتها الحملة الفرنسية على مصر . صحونا وفاضت قلوبنا بالمخاوف والقلق..

ووسط بحر المخاوف تراءت لنا على سطح الماء قشة . اسمها محمد على . وتعلقنا بها . وارتحنا لأن هذا الرجل أراد أن يكون منا ، وتاقت نفوسنا إلى أن يتحول هذا الرجل إلى رب لأسرتنا . فاعتبرناه أبا . وقلنا : نربيه فلعله يصلح فى النهاية.

وأثبت الرجل كفاية نادرة . تجواهه ومواهبنا معا ، وفى يوم من الأيام بعد انحدار الجيش التركى أمام الفلاحين الذين أصبحوا محاربين عظماء لأنهم وجدوا أبا ، فى ذات يوم عند ثمر بيلان سحق أبناء الفلاحين الجيش التركى وفتح الطريق إلى الأستانة وتوقع الناس أن يكون خليفة الإسلام الجديد من صنع مصر وأنه سيدخل الأستانة بقوة الجندى المصرى.

وهنا عجز الرجل عن أن يخطو الخطوة الكبرى التى كانت ستجعله حقا من صناع القرن التاسع عشر.

عجز عن أن يثبت للمصريين أنه والد ، ويريهم أنه رب الأسرة المنشود . وكان هذا غريزا منه أو جهلا أو ربما عصبية . فقد كان الرجل يعتم عندما يبلغه أن جنود مصر الذين كونهم ورفق قيمهم الكولونيل سيف أو سليمان باشا ، يتزلون الهزائم بجيوش الأتراك ، كان يشعر أنه هو الذى يُهزم ، وهذا الرجل المرهوب فى كل شىء إلا فى الجانب الإنسانى تراجع من الشام وهو منتصر ، تراجع أمام ضابط بريطانى صغير يسمى الكولونيل نابيير ، ولو أنه ثبت أمامه لأكله الجنود المصريون أكلا.

هنا فقد محمد على فرصته الكبرى ، فقد حبب آمال المصريين لأنه افتش القوة من الأتراك ثم من الأوروبيين..

وكان ذلك فراق ما بيننا وبينه.

وكان من الممكن أن ينصلح الحال لو عاش ابنه إبراهيم ، ولكن ابنه إبراهيم مات ، وولى أمرنا عباس الأول ووضع نفسه تحت حماية أوروبا.

وكان ذلك حكما بالموت على أسرة محمد على ، ولكن مصر لم تعد إلى التحجر والنوم مرة أخرى ، سرنا فى نهضتنا طوال القرن التاسع عشر ، وفى القرن العشرين جعلناها ثورة عندما وجدنا آباء من أسرتنا ودعائنا : عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد ثم سعد زغلول.

ثم جمال عبد الناصر ثم أنور السادات.

كلهم من أسرتنا ، كلهم شعرنا أنهم قادة آباء معظمهم من قرانا.

والمصرى إذا وجد القائد الأب رأيت منه العجب.

صبغة الله فى شأنه (ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون)